

فن التّرسّل في العصر المملوكيّ.

ط.د / دهاش خيرة

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

إشراف: د. فاطمة صغير

بعد سقوط الدّولة الأيوبيّة ظهرت الدّولة المملوكيّة،¹ إذ جلب الأيوبيون عند نهاية حكمهم مماليك من الأتراك، عند تولي الملك الصّالح أيوب السّلطة، وصاروا يشكّلون معظم جنده²، فلولا الملك الصّالح لم يكن المماليك ليوطؤوا الأراضي العربيّة، إذ اشتراهم، واستكثر منهم. وقد عمّروا العالم الإسلاميّ لمُدّة طويلة، فهم عبارة عن مجموعة من: "الرّقيق الأبيض من الأتراك وغيرهم - لأوّل مرّة أن يصلوا إلى قيادة قلب العالم الإسلاميّ لمُدّة قرنين ونصف، وهذا تطوّر لافت وغريب نوعا ما، إذ ظلّ الرّقيق والمماليك والعبيد منذ العصر العباسيّ في كلّ العالم الإسلاميّ تقريبا رهن الوظائف البلاطيّة والعسكريّة، وإن تنامي دورهم السّياسيّ وتدخلوا في شؤون الحكم في معظم فترات الانحطاط، والتّراجع، وقد تدخلوا في أمور الحكم والسّياسة"³.

وقد اعتمدوا عليهم خلال الفوضى السّياسيّة التي نشأت ببلاد مصر والشّام في ذلك الوقت"³.
الحياة العسكريّة: وقد كانت تنشئتهم تنشئة عسكريّة، من أجل الدّفاع عند حدوث أي صراع سياسيّ، وينقسم المماليك إلى قسمين:

أ - **المماليك البحريّة:** اتخذ الأيوبيون منذ أواخر حكمهم مماليك لهم من الأتراك وكانوا معظم جيش الملك الصّالح أيوب، ثم أنزلهم في جزيرة نهر النيل، فعرفوا باسم: المماليك البحريّة⁴.

ب - **المماليك البرحيّة:** وقد كانوا حرسا وجنودا للأيوبيين أسكنوهم في أبراج قلعة القاهرة فعرفوا باسم المماليك البرحيّة، وقد توصّلوا إلى السّلطة بالقوّة⁵. تميّز "المماليك" ب: **القسوة:** وعرفوا بقسوتهم إذ: "استلزمت حياة التّرف هذه ثروات طائلة كانت المماليك يحصلونها من النّاس، إذ أنّ إقطاعهم ومداخيلهم لم تكن كافية لتأمين بذخهم"⁶.

الحياة الاجتماعيّة: وقد قسّم المجتمع إلى طبقتين:

الأولى وتتألّف من القضاة وكتّاب السّر والمنشئين وشيوخ الإسلام، وعمد المذاهب، والثّانية وتتألّف من الشّعب بشتي فئاته من تجّار وبطالين وسوقة⁷.

الحياة الدّينيّة والثّقافيّة: وعلى الرّغم مما قيل عن المماليك إلّا أنّنا نجدهم يهتمون اهتماما بالغا بالدّين الإسلاميّ، وباللّغة العربيّة، كما عنوا كذلك بالأدب بشعره ونثره، وخاصّ"⁸.

الموسوعات: "كانت الغلبة في تلك المؤلّفات للصبّغة الموسوعيّة التي يميل فيها الكاتب إلى التّقل والجمع والرّواية أكثر من ميله إلى التّجديد والابتكار"¹⁰.

تعريف الرّسالة :

أ- **لغة :** ترسّل: التّرسّل: القطيع من كل شيء والجمع أرسال والتّرسّل: الإبل، وأرسلوا إبلهم إلى الماء إرسالا أي قطعوا والتّرسّل إذ قال: أرسل إلى الإبل إرسالا وجاؤوا رسله، رسله أي جماعة وراسله مراسلة فهو مراسل فهو مراسل ورسيل قال: والتّرسّل من الرّسل في الأمور والمنطق كالتمهّل والتّوقّر والتّنبّت وجمع الرّسالة الرّسائل والإرسال: التّوجيه، وقد أرسل إليه والاسم الرّسالة والرّسول والرّسيل الأخيرة عن تغلّب وانشد¹².

ب- اصطلاحاً: الرّسل نصّ ثريّ سهل يوجّه إلى إنسان معيّن وهو الرّسالة القصيرة التي توجّه إلى مراسل بعينه لإبلاغه ضرباً من الضّروب، من أمثال التّهاني والتّعازي¹³.

فنّ النّثر في العصر المملوكيّ: لم يكن للشّعر من التّكريم في العصر المملوكيّ، إذ كان التّراث العربيّ الذي كان للنّثر إلى أبناء ذاك العصر، ومن أنواع الرسائل نحد:

1- **الرسائل الإخوانية:** إنّ شؤون الحياة تقتضي التّهنئة حيناً، والمواساة حيناً آخر، ولذلك ظهرت الرسائل الإخوانية مثل الفرج بمولود، أو التّعزية عند وفاة قريب ف "هي التي تعبّر عن مشاعر الكتّاب والشّعراء، نثراً ونظماً من مدح وهجاء، واعتذار وعتاب، ورثاء، وشكر وتهنئة"¹⁴ وهي تعبّر عن المشاعر.

2- **النّثر الدّيواني:** "كانت الرسائل الرّسميّة متعدّدة الموضوعات والمناسبات، فمنها ما يتبادله الملوك والسلاطين فيما بينهم من مهام الأمور، وجلال الأحداث في الحرب والسّلام وحفظت لنا مصادر العصر مجموعة كبيرة من رسائل السلاطين إلى ملوك العالم"¹⁵.

3- **الرسائل المملوكيّة:** "وهي مكاتبات السّلطان إلى الملوك والأمراء في القضايا العامّة بشؤون الدّولة، أو في العلاقات الخارجيّة بين الدّولة وسواها من الدّول"¹⁶.

التّقاليد: "وهي رسائل تعيين رجال الدّولة في المناصب العاليّة"¹⁷ وقد احتلّت الرسائل السّياسيّة في العصر المملوكيّ مكانة عاليّة، إذ تعدّ لسان الدّولة النّاطق عن فكرها، وقد عني بكتابتها كتّاب موهوبون، وأخرجوها على الوجه الذي يليق به، وقد نشأت في حضانة ديوان الإنشاء¹⁸، فمنها "ما ينظّم علاقة الخلفاء بالخاصّة والعامّة من خلال البيعات والعهود التي تكفل سيادة أمر الخليفة، ونفاذ أحكامه وأوامره ونواهيته في جوّ من الأمن والاستسلام، فضلاً عن كونها السند الذي يحمي ظهره، ويؤكد شرعيته في أداء واجبه"¹⁹، وبعضها "ما يهتمّ بحياة الأفراد والجماعات في حالات الحروب والجماعات في حالات الحروب والفتن"²⁰.

فنون الكتابة والرسائل: "أما فنون الكتابة، والرسائل في العصر المملوكيّ خصوصاً فقد بلغ كتّابها منازل رفيعة لدى سلاطين المماليك قاربت منزلة أصحاب السيوف، وكبار القضاة"²¹، "وكان قد استحدثت المماليك منصبا جديدا في الكتابة إلى جانب صاحب ديوان الإنشاء أو كبير الكتّاب هو "كاتب السّر" أو رئيس الدّيوان السّلطاني. وارتفع كاتب السّر في منزلته عن صاحب ديوان الإنشاء، وتنافس في تولي هذا المنصب كبار كتّاب الدّولة"²²، "وكان لكتّاب الإنشاء سواء منهم من شغلوا منصبا في الدّيوان أو من تولوا كتابة السّر أو من كتبوا لكبار الأمراء مكانة مرموقة في الدّولة لشدّة الحاجة إليهم في الرّسل ومخاطبة الرّعية، وإصدار المنشورات باللّغة العربيّة"²³.

مكانة الكتّاب في العصر المملوكيّ وأهم الصّفات التي امتازوا بها: الرّسالة:

وقد كتب "محي الدين ابن عبد الظّاهر" رسالة إلى السّلطان قائلاً: "بسم الله الرّحمن الرّحيم: بقوة الله تعالى، بإقبال دولة السّلطان الملك المنصور قلاوون إلى السّلطان أحمد

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحقّ منهاجاً، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح، ودخل النّاس في دين الله أفواجا. والصّلاة والسّلام على سيّدنا ونبيّنا محمّد، الذي فضّله الله على كلّ نبيّ، نجى به أمته، وعلى كلّ نبيّ ناجى صلاة تنير مادجا، وتبهر من داجي.

وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتّكريم المشتمل على النّبأ العظيم، من دخوله في الدّين وخروجه عن خلف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للعلم المعلم، والحديث الذي صحح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصح الحديث ما روي عن مسلم، وتوجهت الوجوه إلى الله سبحانه في أن يثبت على ذلك بالقول الثابت، وأن يثبت حب هذا الدين في قلبه، كما أنبت أحسن الثبوت من أحسن المناصب.. حصل التأمل للفصل للمبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النية في أول العمر وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية بالقول والعمل والنية، فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام، وثبت أقدامنا في كل موقف اجتهد، وجهاد تتزلزل دونه الأقدام²⁴.

التحليل: يستهل الكاتب رسالته بالبداء بالمرسل، والمرسل إليه، فالمرسل هنا هو "محي الدين بن عبد الظاهر"، الذي أرسل برسالة إلى سلطان التتار "أحمد غازان" على لسان الملك المنصور قلاوون. وكان من طبيعة الرسائل في ذلك العصر أن تبدأ بالبسملة.

ثم يستعين بقدرة القادر عز وجل أولاً على توفيقه، ثم بقدرة الملك المنصور قلاوون لتوفيقه في كتابة هذه الرسالة -وهو يريد بهذا تزكيته بطريقة غير مباشرة من أجل التكبس ونيل المطلب منه - . كما نلاحظ لفظ "أما بعد" الذي كان شائعاً في كتابة الرسائل، ويرى أن الله عز وجل هو الذي يبين له الطريق في كتابة هذه الرسالة، ويتمثل ذلك الحق في ولوج "أحمد غازان" إلى الدين الإسلامي، كما كان له ضلع في دخوله للإسلام. كما نلاحظ أنه وظف تناساً دينياً يتجلى في قوله: دخل الناس في دين الله أفواجا²⁵ وهي عبارة مستقاة من قوله تعالى: "إذا جاء نصر الله والفتح"²⁶، ثم ينهي على النبي صلى الله عليه وسلم النبي المفضل على سائر الأنبياء، فصارت الأمة بفضلها ناجية من الهلاك، وكذلك يوجه الصلاة لكافة الأنبياء الذين أنجوا أممهم من الهلاك مثله، وهو يقصد نجات هذا الملك "غازان" من العذاب، بتكريم من الدين الإسلامي، فهذه الصلاة على النبي التي تنير ما أظلم ويقصد بالعلم الذين الإسلاميين، من الجهل والحياة التي سبقت الإسلام، وكذلك تنير الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عقول من جهلوا. كما يعلن فرحته بتلقي الرسالة السابقة التي تلقاها من "أحمد غازان" ووصفها بالكتاب الكريم، الذي تلقاه قلاوون بصدر رحب، واشتملت على النبأ العظيم لقوله: (وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم)، وهذا تناس يضيف جمالا على العبارة، وهو مأخوذ من قوله تعالى: "عم يَسَاءَ لَوْ عَنِ النَّبِ الْعَظِيمِ"²⁷.

وكذلك سرّ لدخوله إلى الإسلام، والخروج عن عقيدة التتار، إذ أنه لما فتح الكاتب "محي الدين ابن عبد الظاهر" (كاتب السر) الكتاب وأخبره بالهدنة فرح به، ذلك أن الإسلام يدعو إلى السلم، وكذلك السنة النبوية التي تدعو إلى نبذ الخلافات فهو الذي لا يكذب أصحابه في نبأ دخوله إلى الإسلام وذلك نلمسه من خلال قوله (وأصح الحديث ما روي مسلم)²⁸، فساد السلام والأمن بتواجد القلوب كلها تحت راية الدين الإسلامي الحنيف الذي لا تغيير فيه، ويدعو الله أن يثبت قلب "أحمد غازان" على حب الله تعالى كما يثبت أحسن الثبوت في أحسن المناصب، إذ تنمو هذه النباتات في أحسن المناصب، ويعني بالثبوت (الدين الإسلامي) أما أحسن المناصب فيعني بها بيئة التتار الصعبة.

ويرى "قلاوون" أن "أحمد غازان" كان متأملاً وأن تأمله كان سبباً في دخوله إلى الإسلام، كما أنه كان خالص النية منذ بداية حياته، وامن بدين الله ووحدانيته عز وجل، فكان صادق القول والفعل، ثم يحمّد الله لدخول "غازان" إلى الإسلام، كما يحمّد الله مرة ثانية أن جعله من السابقين إلى كتابة هذه الرسالة ليهتبه على هذا الدخول إلى الإسلام، كما يحمده لمقامه العالي الذي يتبوّؤه في الحكم لأنه كان ثابت الأقدام في المواقف كلها لقوله: "وثبت أقدامنا"²⁹ وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ("وُثِّبَتْ أقدامنا") "وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِيعًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"³⁰، وهذا دلالة على طلب المعونة والصبر من الله تعالى. كما أن هذا التناس محسن بديعي يزيد العبارة جمالا، والألفاظ أنيقة. ونلاحظ أن عاطفة الكاتب كانت صادقة منذ الوهلة الأولى، أما في نهاية الرسالة فللمس أنه يوجه رسالة ضمنية يهدده من خلالها، ويزلزل أقدام خصمه إن أخلف وعده، ويكون له المرصاد.

وقد رسم الكاتب للمرسل إليه صورة بأنّ القادة المسلمين ذوي جيوش ثابتة، نظرا لتربيتهم وتهيتهم للقتال ومطالعة العدو الذي يميّز بالصبر والمواجهة. "أما عن مضامين تلك الرسائل من حيث التنوع والوحدة لا تختلف عن الرسائل الديوانية، أما خواتيم الإخوانيات، فأكثر ما تكون بالدعاء إضافة إلى عبارة: بمنة الله وكرمه إن شاء الله تعالى" ³¹.

الدراسة البلاغية للرسالة: وظف الكاتب حروف الجر المتعددة الدلالات في قوله: بقوة تفيد الاستعانة، وهذه الاستعانة تتمثل في استعانة محي الدين ابن عبد الظاهر بالله.

كما نجد الاستعانة أيضا في قوله: "ياقبال دولة السلطان، أما إلى " في قوله "إلى السلطان" فتفيد انتهاء الغاية لنا في قوله: "أوضح لنا: تفيد الملكية في: في قوله: "في دين الله أفواجا" تفيد الظرفية المكانية في: في قلبه: تفيد الظرفية المكانية على: في قوله: على كل نبي أتمته تفيد الاستعلاء لما فتح هذا الكتاب وأصح الحديث ما روي عن مسلم بمعنى الذي من أحسن المنابت وتفيد النوع واللام في قوله: للفصل وتفيد الالتصاق المجازي دخوله في الملة المحمدية "وتفيد المكانية.

البيان: نجد الكناية في قوله: "تنير من داجي" وهي عبارة عن كناية عن موصوف، ويقصد به الضال، وكذلك نجد كناية أخرى عن موصوف في قوله: (و صل الكتاب الكريم) ويعني بها الرسالة التي بعث بها "غازان" إلى قلاوون كما نجد أنه قال: "ينبت حبّ هذا الدين في قلبه، كما أنبت أحسن التبت من أحسن المنابت"

المشبه أداة التشبيه المشبه به نوعه تشبيه تام

يريد به الكاتب ترسيخ الدين الإسلامي في قلبه، فالحمد لله أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقال والمقام.

المحسنات البديعية: من المحسنات البديعية نجد: دخوله وخروجه ونوعه طباق الإيجاب، وكذلك القول والعمل وهو طباق الإيجاب.

والسجع: منهاجا، وأفواجا، التكريم، النبأ العظيم، الوحدانية، النية، الإسلام، الإلهام (سجع).

جناس: بنا، لنا وهو عبارة عن حب، حب جناس المقام، المقال جناس ناقص.

من خلال هذا البحث توصلنا إلى النتائج الآتية:

- معرفة الظروف التي عاش فيها الكاتب المملوكي، وسياسة القسوة السائدة بين المماليك والرعية بعد أن كانوا مجرد عبيد يباعون في الأسواق.
- تقسيم المجتمع إلى طبقات.
- اهتمام المماليك بالدين الإسلامي، وترك حرية الأديان للشعب.
- عصر المماليك عصر التناقضات بين وجود طبقة متخلّفة، ووجود طبقة منحلّة أخلاقيا.
- اختلاف الآراء بين قائل بتشجيع المماليك للأدباء، وبين ناكِر لذلك.
- بروز الموسوعات في العصر المملوكي، وتشبيد المراكز الثقافية، وظهور العديد من المؤلفات.
- بروز الرسائل الإخوانية، والرسائل الديوانية الدالة على حضارة مرسلها، وراقي فكريهما.
- تبوّؤ الكاتب لمنزلة عالية تقارب مكانة الوزير.
- تميّز كتاب هذا العصر بزخرفة منتوجاتهم.

الهوامش:

- 1- ينظر، جورج موسى حداد، المدخل إلى دراسة الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص13.

- 2- محمد شعبان أيوب، مقدّمة كتاب دولة الماليك -تاريخ الماليك السياسي والعسكري، مكتبة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2015، ص5.
- 3- ينظر قاسم عبده، عصر سلاطين الماليك ونتاجه العلمي، دار الشروق القاهرة مصر، ط1، 1994، ص7.
- 4- ينظر جورج موسى حدّاد، المدخل إلى دراسة الأدب العربيّ في العصرين المملوكيّ والعثمانيّ، ص13.
- 5- ينظر، المرجع نفسه، ص16.
- 6- نفسه، ص27.
- 7- ينظر، المرجع نفسه، ص68.
- 8- قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، ص76.
- 9- نفسه، ص13.
- 10- أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص ص282-283.
- 11- ينظر علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس -مضامينه وأشكاله -، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص481.
- 12- جورج موسى حدّاد، المدخل إلى دراسة الأدب العربيّ في العصرين المملوكيّ والعثمانيّ، ص237.
- 13- ينظر، قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، ص ص384-385.
- 14- المرجع نفسه، ص403.
- 15- نفسه، ص237.
- 16- نفسه، ص237.
- 17- ينظر، سلامة هليل عيد، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول (648/784هـ)، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص31.
- 18- المرجع نفسه، ص31.
- 19- نفسه، ص31.
- 20- قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، ص402.
- 21- المرجع نفسه، ص402.
- 22- نفسه، ص ص402-403.
- 23- نفسه، ص404. نقلا عن ابن عبد الظاهر، تشرّيف الأيام والدهور، تح: مراد كامل، ص ص10-11.
- 24- قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، ص403.
- 25- المرجع نفسه ص404.
- 26- سورة النصر الآية 02.
- 27- قصي حسين، الأدب العربيّ في العصرين المملوكي والعثماني، ص403.
- 28- المرجع نفسه، ص404.
- 29- سورة البقرة، الآية 250.
- 30- سلامة هليل عيد، الرسائل الفنية في العصر المملوكي الأول (648/784هـ)، ص329.
- 31- المرجع نفسه، ص31.